دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، صيف ۱۳۹۲، العدد الثامن عشر، صص ۱۱۱- ۱۲۶

الوصف فی شعر خلیل مردم بک

مهدی ممتحن*
عزیزة رحیمی**

تاریخ الوصول: ۹۱/۱۲/۲۵
تاریخ القبول: ۹۲/۳/۱۹

الملخص

الشاعر *خلیل مردم بک* نموذجاً رائعا من رجال البیان لصدر هذا العصر فی أدبه ونتاجاته، رفع اسم بلاده عالیا، وناضل فی سبیلها کل حیاته. فقد کان من الأوائل الذین استساغوا الادب الضخم والعبارة الفخمة والشعر المتین، وأفاد منه، فکان صلة الوصل بین القدیم والحدیث، مال إلی الوصف، جمع أطایب القول وأحاسن الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی، وقاسی فی سبیل ذلک ما لا یقاسیه جیلنا من فقد المصادر، وندرة الخزائن، وقلة الثقافة، وضآلة التعلیم، وجفافا لینابیع. فهذا المقال دراسة حول حیاة الشاعر *خلیل مردم بک* ومیله إلی الوصف والطبیعة والفن، وجولة قلیلة فی شعره القومی والمصدر المهم هو دیوان الشاعر.

الکلمات الرئیسیة: الأدب، الوصف، خلیل مردم بک، الوطنیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت(أستاذ مشارک). Dr.momtahen@gmail.com
** طالبة الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها بجامعة آزاد الإسلامیة فی آبادان. rahimiazize@yahoo.com
الکاتب المسؤول: عزیزة رحیمی

المقدمة

الشاعر *خليل مردم بک* هو النّحلة الدّمشقية التی خرجت إلی الحياة، تشمّ رحيق العلوم والآداب، تغرق فيه، لتحمل إلی العالم جمال وشهد العلم والأدب، شهدٌ مَن يتذوّقه لن يجوع أبداً. لم تحتكر رحيق العلم والأدب لنفسها، بل كانت تدور، وترقص لتدلّ باقی أفراد الخليّة علی الرّحيق، علّ باقی النّحل يحذو حذوه.

العلامة خليل مردم بک شاعر دمشقی، ولد فی دمشق عام ١٨٩٥، لأب هو *أحمد مختار مردم بک*، و*أم هی فاطمة محمود الحمزاوی*(مفتی دمشق وعلامتها)، من عائلة مردم بک الثرية والعريقة فی الوجاهة، تهتمّ بالأدب والسياسة، ولم يكن له أخوة من الذكور، وإنما كان له خمس شقيقات.

تلقی دراسته الأولی فی الكتّاب وهو فی سن السابعة، ولما بلغ العاشرة دخل مدرسة «الملک الظاهر» الابتدائية الرسمية وأمضی فيها ثلاث سنوات، ثم انتقل إلی المدرسة الإعدادية الرسمية حيث مكث فيها سنة واحدة. فقد أباه فی الخامسة عشرة من عمره. وبعد أربع سنوات فقد أمّه، فنشأ يتيماً فاقد الحنان يسير بين اشواک الدنيا حذرا قلقا مترددا، وكأنّ المصيبة طبعته بطابع الصمت والحذر والسكون، والابتعاد عن المجتمع، غير أن يتمه عصمه عن مفاسد أبناء اليسار. درس طرفا من الحديث الشريف علی المحدث *الشيخ بدر الدين الحسنی* وتعلم الفقه علی *الشيخ عطا الكسم* مفتی الشام، ودروسا فی الصرف والنحو علی *الشيخ عبد القادر الإسكندرانی* وأخذ يقرض الشعر فی سن مبكرة، ويطالع فی الكتب الأدبية معتمداً علی نفسه. بدأ بالكتابة فی سن مبكرة وكان أول إنتاج له «جمهرة المغنين».

ولما جلا الأتراک عن دمشق أواخر سنة ١٩١٨ وقامت الحكومة العربية، فعُيّن *خليل* مردم مميّزاً لديوان الرّسائل العامة، ويمارس الوظيفة مترقيا فی مراتبها حتی اواخر سنة ١٩١٩، وقد شهد خلال هذه الحقبة تاريخا جديدا للامة العربية فاهتزّ قلبه للأمجاد، وتفتحت نفسه للمناصب، وتغنی بأن رأی أُمته تنشئ الحياة وتبنی العز من جديد بعد ركود طويل. فآمن بعروبته فمال قلبه إلی الشعر الوطنی، وتغنی لسانه باستقلال العرب. وبعد أن دخل الجيش الفرنسی دمشق، صرف من العمل فی الحكومة، وقد طارده الاستعمار الفرنسی فهاجر إلی لبنان، ثم الإسكندرية، وهناک التقی بأعلام الفكر والأدب،

ثمّ سافر إلی إنجلترا وانتسب إلی جامعة لندن، وحصل علی شهادة، ثـم عـاد إلـی دمشـق وتغلغل فی قلبه کرههم، وعشق الشعر المهجری، وأسّس مع صحبه "الرابطة الادبیة"، ثـم أنشأت الرابطة مجلة باسمها «مجلة الرابطة الادبیة» وضمّت الرابطة حینها نخبة من رجال الفکر والأدب وجمیعهم انتخبوا *مردم بک* رئیساً للرابطة.

وفی هذه المجلة نشر الفقید شعراً ودراسات، وکان الشعر فـی الغـزل، وشـعره مشـبوبة العاطفة تمثل الشاب فی هذا السن، وسالت فی دروب أشعار *البحتری* و*ابن المعتز* وقصـائد العذریین، فقد سلک *خلیل مردم بک* فی حب الشعر القدیم والتراث الخالد.

وفی عام ۱۹۲۵ انتخب عضواً فی المجمع العلمی العربی، وقدّم رسالة بعنـوان «شـعراء الشام فی القرن الثالث الهجری»، وفی هذا العام اندلعت الثورة السوریة فأخذ ینشر قصائده الوطنیة لرفع الظلم والطغیان فهاجمته السلطات الفرنسیة؛ فغادر دمشق إلی لبنان واستقرّ فی قریة "المروج" وبقی فیها ثلاث سنوات بعدها عام إلی دمشق عام ۱۹۲۹ ولمـا علمـوا بوجوده سافر إلی الإسکندریة عام ۱۹۲۶ وبعد أربعة أشـهر غـادر الإسـکندریة إلـی لنـدن لدراسة اللغة الإنکلیزیة وآدابها فی جامعة لندن، وأمضی فیها ثلاث سنوات عاد إلی دمشق عام ۱۹۵۹ وعیّن مساعداً لرئیس الأدب العربی فی الکلیة العلمیة الوطنیة أمضی فیها تسع سنوات(۱۹۲۹ ـ ۱۹۳۸).

وخلال هذه السنوات راح الرجل یؤلف الدراسات الادبیة ویترجم لفحول الادباء القدماء، فأصدر عددا من الکتـب جعلهـا بعنـوان «أئمـة الأدب» ونشـر منهـا خمسـة أجـزاء هـی: «الجاحظ، وابن المقفع، وابن العمید، والصاحب بن عباد، والفرزدق» ووضع النشید الوطنی لسوریة عام ۱۹۳۶. وفی عام ۱۹۳۳ أسّس مع الأدباء مجلة «الثقافة». وفی عام ۱۹۵۳ بعد أن طارت شهرته فی الافق، عیّن وزیراً للخارجیة السوریة وفی نفس السنة انتخبه المجمع العلمی العربی رئیساً له وانصرف إلی الاهتمام بشؤون المجمـع وتشـجیع المـؤلفین وبقـی رئیساً حتی وفاته عام ۱۹۵۹.

کان *خلیل* فانتخبه مجمع اللغة العربیة فی مصر عضواً عـام ۱۹۴۸، والمجمـع العلمـی العراقی عضواً عام ۱۹۴۹، ومدرسة الدراسـات الشـرقیة بلنـدن عضـواً عـام ۱۹۵۱، ودائـرة المعارف الإسلامیة للمستشرقین عضواً فی تحریرها ۱۹۵۱، ومجمع البحـر المتوسـط فـی بالرمو بإیطالیا عضواً عام ۱۹۵۲، والمجمع العلمی السوفییتی عضـواً عـامً ۱۹۵۸. فـی عـام

۱۹۵۱ عين وزيراً مفوضاً فی السفارة السورية ببغداد، فتحولت السفارة خلال السنوات الثلاث التی قضاها هناک إلی منتدی أدبی للطبقة العالية من رجال الفكر والسياسة والأدب، وكتب ۱۵۳ قصيدة وبلغ مجموع أبياتها ۳۴۶۷ بيتاً وتوزعت هذه القصائد علی الوطن والقومية والاجتماعيات والمراثی والإخوانيات والنسيب.

كان يستقبل فی منزله كبار رجال الفكر والأدب فی سورية والبلاد العربية كما استقبل الشاعر *أحمد شوقی* الذی زار دمشق عام ۱۹۲۴، والشاعر *جميل صدقی الزهاوی* و*معروف الرصافی* و*خليل مطران* و*بشارة الخوری* و*إيليا أبو ماضی* و*أحمد حسن الزيات* و*إبراهيم عبدالقادر المازنی* و*محمود تيمور* و*زكی مبارک* وغيرهم.

يقول عنه *سامی الدهان*: «كان صلة الوصل بين القديم والحديث، جمع أطايب القول وأحاسيس الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی»، ويقول عنه *جميل صليبا*: «أبواب شعره علی كثرته قليلة، طغی عليها باب الوصف فی الطبيعة والفن. إن قصائده كثيرة فی الحماسة الوطنية ... ولقد اهتم الخليل بالشعور القومی والشعور الإنسانی وعمل علی إصلاح حياة الإنسان». ويشار إلی قصائده فی الحنين إل دمشق، والتفجع علی فراقها وذكر ما فيها من مسارح صباه ومعاهد أنسه.

توفی الشاعر العظيم *خليل مردم بک* فی دمشق، فی ۲۱ تموز ۱۹۵۹، وبقيت شلالات شعره ورذاذها، تبلّل شجر الياسمين، النّوافذ، الأحياء العتيقة، والشّرفات الخشبية الدّمشقية، شلاّلات تعشق الصّعود إلی العلا.

أدبه وانجازاته

علی الرغم من انصرافه إلی الأعمال الإدارية والدبلوماسية فی وزارتی المعارف والخارجية، والمجمع العلمی العربی الذی ظل رئيساً له مدة سبع سنوات، فإنه ترک لنا ثلاثة وعشرين كتاباً بين مؤلف ومحقق لم ير النور منها فی حياته إلا كتاب «شعراء الشام فی القرن الثالث الهجری» وسلسلة «أئمة الأدب»، ودواوين «ابن عنين، وابن الجهيم، وابن حيوس، وابن الخياط»، التی قام بتحقيقها. أما الكتب الأخری فقد بقيت مخطوطة، إلی أن قام نجله *الوحيد عدنان* بإصدارها تباعاً بعد وفاته، كذلک أصدر له المجمع كتاب «جمهرة المغنين» وكتاب «الأعرابيات».

خلیل مردم بك المحافظ التقلیدی

خلیل مردم بک فهو مثال واضح للأدیب العربی المحافظ التقلیدی. یستمد من الأدب العربی القدیم ـ نثره وشعره ـ نسغ شاعریته، وعناصر طریقته الشعریة، ولم یتأثر بأی ثقافة اجنبیة ولا یعجب بلغاتهم و آدابهم، فهو منذ سنة ۱۹۴۶، أصبح یحیی حیاة جدیدة أحبها منذ صباه، و هی العکوف علی المصادر القدیمة، وأحیاء الشعر الشامی یترنم به ویتغنّی، فقد سلک الشاب فی حب الشعر القدیم و الخالد و یبحث و ینقب، حتی عرف کل حی من أحیاء دمشق فی قدیمة وحدیثة، وأتقن کل لفظة دمشقیة جاءت إلی لسان الشعراء قبله. فإذن ظلّ طلب العلم والتثقیف الذاتی یلازمان الخلیل طوال سنی حیاته، وقد أتاح له فراغه ویسره المادی أن یترک نفسه علی هواها، وأن یتقطع للأدب، متنقلاً بین التراث القدیم، وکان ینقل ما یستحسنه فی دفاتر خاصة، تکونت عنده عدة مجموعات کما أشرنا لهم من قبل.

خلیل مردم بك وتأثره بالبحتری

تأثر *خلیل مردم بک* وأعجب *بالبحتری* إلی حد بعید. قد یؤکد الباحث فتوح أنّ الشاعر *خلیل* کان متتبعاً ومعجباً بشعر *البحتری* کان فی نظره مقیاساً للجودة إضافة الی أن کان زعیم الطریقة الشامیة التی تقوم علی الوصف أولاً، ولأنّ اسلوبه یقوم علی العنایة بالموسیقی وإحکام الصنعة والاهتمام باللفظ دون الغوص بالمعانی المتکبرة والأفکار المخترعة، وقد سأله الشاعر *حافظ إبراهیم* مرة: من تفضل من الشعراء؟ *أبا تمام*، *البحتری*، أو *المتنبی*؟ فأجاب دون تردد: *البحتری*، لاسیّما فی الوصف القائم علی إشتراک النظر والسمع والوعی والحس.

فقد أولع *خلیل* بالوصف والتشخیص والإحیاء وبعث الحیاة فی الإنسان والنبات والجماد، وأنه لا یوجد شاعر وصف غوطة دمشق کما وصفهاالشاعر *خلیل*، حیث صور ریاض الغوطة وجداولها وأزاهیرها والأطیار والیاسمین الدمشقی تصویراً دقیقاً مفعما بأحاسیس اللفظ والاشتیاق، ویحنّ الیها حنین العاشق الی معشوقه من خلال الوصف الجمیل لهذه البیعة والطبیعة الخلابة. کما فی قصیدته «الغوطة» التی یقول فیها:

عَرِقَتْ جباهُ الزَّهْرِ مِنْ قَطْرِالنّدی مُلْتَفّةُ الأعناقِ ذات تآطرِ

وأرى الغُصونَ كَأَذْرعٍ مَمْـــــــــدودَةٍ قُطيــــعُ أكْبـــــــادٍ وَشَــــــقٌّ مَرائِـــرِ
والــــزَّهْرُ يَلْقـــــانى بِثَغْرٍ باسِـــــمٍ وبَوَجْنَـــــــةٍ حَمْـــــرا وجفْـــنٍ فـــاتِرِ
وَشَــقائِقُ النُعْمـــــانِ فــــى قيعانِـــها لِتَــعانُقٍ مِـــنْ بَعْدِ طــــــــولِ تهـاجرِ

الوصف فى شعره

كما سبق القول يقول عنه *جميل صليبا* فى الوصف أن ابواب شعره على كثرتـه قليلـة طغى عليها باب الوصف فى الطبيعة والفن، إن إحساسه المرهف لا يريـه فـى الطبيعـة إلا الالوان الجميلة والألحان العذبة والحركات اللطيفة، *فخليل مردم* يحدثنا فى شعره الوصفى عن أزاهير الرياض، وألوانها، والسحاب الماطر، والطيور الصـداحة، ورقـص الأغصـان، وحبْـو امواج البحار، ودخان السحب فوق شعلة الشمس، ورحلة الشمس، وغدران المائرة، ويعرض على الصخور الصماء، والبراكين الثـائرة، والجبـال الشـاهقة، والصـحارى السـاكنة والزلـزال الهوجاء.

فى قصيدته «الغوطة» يقف الشاعر امام الطبيعة وقفـة المسـحور، يعاطيهـا أحاسيسـه وتعاطيه صورها، ولا يصورها إلاّ بعد أن يغمس ريشته فى مواد قلبه فكأنها مرآة أحلامـه، ومرتع صبوته وهوى فؤاده ومتعة ناظره أى كأنّها صورة من صور نفسه كما يقول:

مرآةُ أحْلامــى ومَرتــع صَـبْوَتى وهَوى فؤادى بَلْ ومتْعَـةُ نـاظرى

ويشبّه صور الطبيعة بآثار النفس الإنسانية، فللزهر مقلة وسنى، وخدّ ناضر، وثغر باسـم، وجفن حائر، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق:

والزَّهْــرُ يَلْقــانى بِثَغْــرٍ باسِــمٍ وبَوَجْنَــةٍ حَمْــرا وجفْــنٍ فــاتِرِ
وأرى الغُصــونَ كَـأَذْرعٍ مَمْـدودَةٍ لِتَعـانُقٍ مِـنْ بَعْـدِ طـولِ تهـاجرِ

وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياءً:

عَرِقَتْ جباهُ الزهـرِ من قَطْـرِ النّـدى مُلْتَقَّــــةَ الأعْنــــاقِ ذات تـــآطرِ
كَــالْبِكْرِ يرشــحُ لِلْحَيــاءِ جَبينُهـا عرقــاً إذا ضُــمَّتْ لِصــدرِ الهاصِــرِ

كما أشرنا أن الشاعر *خليل مردم بک* شاعر لطيف النفس و مرهف الإحساس، و أجمـل الفصول عنده فصل الربيع، لأنّه الطف الفصول السنة، و فـى شـعره ذات مكانـة عاليـة لأنّ نفسه تعشق الطبيعة الجميلة، و يقول فى وصف الربيع:

قــَدْ صَـفَتْ لَنــا الْحقـبُ　　واحْتمـــی بِنـــا الطَـــربُ
فالريــــــاض باســـــــمة　　إنّ ثوبهــــــا قشـــــــب
والسَّمــــــاءُ بـاكِيـــــَةٌ　　إِنَّ دَمـْعَـهـــــا ســــــربُ
ترتـــــــدی الحَـــدادَ وَإِنَّ　　رِداءَهــــــا السحـــــــبُ
إِنَّ رعـــــــدَها كَثـُــــــكا　　لـــی تَصـــیحُ تنتحـــبُ
إِنَّ بَرْقـــــــَها وَمْــــــضٌ　　كَـالسّــــعیرِ یَلْتـــَهِبُ

والشاعر كذلک فی هذه القصیدة یعامل الطبیعة معاملة انسان لـه روح وجسـم یلـبس، ویضحک، ویبکی... .

فهو كما سبق القول(فی قصیدة الغوطة) یحب التجول من واد إلی واد، وفی قصیدة لـه عنوانها «بردی» نری مرة ثانیة تجول الشاعر، ویصـف الشـاعر النهـر ویطـوف بوادیـه مـن منبعه إلی مصبه عدة مرات، فكان یری إنسرابه واستدارة مجاریه، ویسـمع غمغمـة النهـر، وهزجه وترنیمه وقوله فی ذلک:

یُریـک فـی جَرْیـه مِـنْ مائِـه صُـوَراً　　تَبْـدو عَلَـی ثَـبَجٍ مِنْـه وضَحْضـاحِ
مـا بَـیْنَ مَنْسَـرِبٍ أوْ مزبـدٍ لجـــب　　أوْ مُسْـتدَیرٍ كَظَهْـرِ التَّـرْسِ مِنْــــداحِ
إذا تَمَــــــوَّجَ مختـالاً بِجَرْیَتِــــــه　　عجبــــتَ مِـنْ قـابِضٍ كفـاً ومِـنْ داحِ
مـا مَـــــرَّ فـی بُقْعَـةٍ إلّـا وخاطَبَهـا　　طَـوْراً بِغَمْغَمَـةٍ طَـوْراً بِإِفْصــــــاحِ
فـی كُـلِّ مَرْحَلـةٍ لَحْـنٌ فَمِـنْ هَـزَجٍ　　إلـــی هَدیرٍ إلــــی تَرْنیــــمِ نَـوّاحِ

فانتزع خلیل من ذلک كله صوراً حسیة مزجها بأحلام قلبه ورؤیا نفسه.

تأثیر الحواس فی شعره الوصفی

القارئ لشعر *خلیل* فی الوصف یشاهد أن جمیع الحواس لها تأثیراً فی شعر الشاعر فـی الوصف، لكنّ حواس البصر والسمع والشم لهم أعظم تاثیراً من بـاقی الحـواس فـی شـعره، بالأخص حاسّتا البصر والسمع لأنّهما أدقّ الحـواس، ولأنّهمـا تكشـفان عمـا فـی الأشـكال والحركات والالوان من توازن واتساق وانسجام:

أثر حاسة السمع فی شعر خليل

والدليل علی ذلک أنه إذا وصف الطير، أسمعنا تغريد الطير وسجعه، كأننا نسمع الحمائم تهدر وتنوح كالثواكل، ونحسّ بتفجعها وهتافها وبكائها، كأنّ سجعها نوح الحزين، وكأن غزلها وتهدارها صوت زامر ينوخ فی الرقص، وقوله فی ذلک يصف "الورقاء":

وَرْقــــاءُ ذاتُ تفجُّــــعِ   هَتَفَتْ فَفاضَتْ أدْمُعی

ومن قوله فی وصف "بردی":

ما مَرَّ فی بُقْعَةٍ إلّا وخاطَبَها   طَوْراً بِغَمْغَمَةٍ طَوْراً بِإفْصاحِ

وفی وصف ال"قاسيون":

تَرَنَّحوا وَتَغَنّوا فی عِبادَتِه   كَما تَرَنَّحَ عِنْدَ النَّشْوَةِ الحاسی

تاثير حاسة البصر فی شعره

ومما يدل علی أثر حاسة البصر فی شعره الوصفی، وصف الشمس، حيث يشبهه احمرارها عند شروقها بشعلة نار علاها سحاب من الدخان:

أمْ تَراها شُعْلَةً و السُّحُبُ مِنْ   فَوْقِها مِثْل دُخانٍ قَدْ عَلاها

فإذا بدت فی السماء عارية اعشی سناها كل ناظر:

فَبَدَتْ عارِيَةٌ حالِيَةٌ   فَإذا وَضاءَةٌ يَعْشی سَناها

ومسح نورها دموع الليل عن وجنة الأزهار، ولج فی تقبيلها حتی تحمر خدودها كما تحمر خدود العاشقين فيقول مردم:

مَسَحَ النّورُ دُموعَ الليلِ عَنْ   وَجْنَةِ الأزْهارِ إذْ قَبَّلَ فاها

لَجَّ فی تَقْبيلِها مُسْتَهْتِراً   فيهِ فَاحْمَرَّتْ خُدوداً وَ شفاها

وكذلک فی قوله مما يدلّ علی تأثير حاسة البصر هو وصف "الزهر". يأتی فی وصفه بصور متميزة، مثلاً فی وصف "الزنبق" فشبه الزنبقة بخود شمرت عن ساقها لتستقی الماء:

وَكَأنّها فی الماءِ خودٌ شَمَّرَتْ   عَنْ ساقِها عِنْد الوُرودِ لِتَسْتَقی

أو يشبه الزنبقة بعذراء وضاءة الجبين تسربلت بغلالة من استبرق، فكأنّ الزهرة فی نظره فراشة بيضاء، وكأنّ أطباقها أنامل أو جفون طويلة الأهداب وقوله:

عـــذْراءُ تَستَهْوی العُیونَ بِطَلْعَة	وَضّاءَةٍ بَیْضاءَ کالعرْضِ النّقی
تَخْتالُ مِنْ زَهوِ الصِّبا فی میْعَةٍ	وَمِنَ الشَّبابِ وحُسْنِه فی رَیّقِ
فکأنّها ببَیاضِها وسَنائِها	بَرَزَتْ إلیْک مِنَ الضّحی فی رَوْنقِ
وتَسَرْبلتْ بغلالةٍ وبِریطَةٍ	مِنْ سُندسٍ خَضرٍ ومِن اسْتبرَقِ
کم زهْرةٍ رَفَّتْ فَخَلت فراشةً	بَیْضاءَ رفَّ جناحُها بترفقِ

ومثل ذلک کثیر فی شعره، والقارئ حین یقرأ شعاره ولاسیما فی الوصف یلاحظ ویلمس أن آثر حاسة البصر أقوی من السمع، ونری أن وصفه لتغرید الطیر أقل من وصفه لألوانه. *خلیل* مردم أعجب بإنسجام الحرکات إعجابه بانسجام الألوان والأصوات، فوصف حرکات الراقصین ورقص الأغصان، ورفرفة الطیر وکرّه وفرّه، وذبذبة ذیله، وتدویم الفراش صعودا وهبوطا، وانطلاقه وتزاحمه فی الفضاء، کأنّ الطیر وهو یضرب بأجنحة النسائم راقص یرسم بحرکاته الألحان فیوحد صور السمع و البصر و یمزجها بعضها ببعض، فمن قوله فی وصف حرکات الفراشتین:

أفانینٌ مِنَ الحَرکاتِ زاغَتْ	لها عینی وَعیٌّ بها بَیانی
فمِنْ ضَمٍّ إلی نَشرٍ لوثبٍ	لرفرفةٍ إلی حربٍ عَوانِ
تَحیَّرَتا هنا وَهناک طیشاً	کما فی الرّیح حارَتْ ریشَتانِ
اذا ما هَبَتا لِبلوغِ قَصْدٍ	بدا لَهما فَوُجِّهَتا لثانِ
وإنْ إحْداهُما انْطَلَقتْ فَجَدَّتْ	بِمتْنِ الرّیحِ مطلقةَ المنانِ

تاثیر حاسّة الشّم فی شعره

کان *خلیل* مردم بک یحبّ روائح دمشق ویشعر عن شمّها بنشوة تدبّ فی قلبه، مثلاً: لقد أعطته الغوطة کل شئ ما یودّه ویتمناه، أعطته الأحاسیس والمشاعر التی صاغ فیها الصور، أعطته الصور الحسیة التی أثرت فی خیاله، لکن اثر حاسة الشم فی شعره أقل من حاسّتا الشم والبصر، أما قوله فی ذلک یصف "الروائح الطیبة":

یا عجباً لطیف ریحِ التربِ	إذا تَنَدّی بدموعِ السُحْبِ
أکان مِنْ تحیَّةِ الغَمامِ	طَیّبة الی التّراب الظّامی
ام تلک أنْفاسُ الثّری ذَکیّة	تشکُرُ لمّا ردّتْ التّحیّة

و نَفْحـةٍ فـی (دُمّـرٍ) و (الرّبْـوَه) فَوّاحـةٍ لهـا دَبيـبُ النشـوة
دقّتْ علی الأوصـافِ و الأسـماءِ لكنَّهـا رائِحَـةُ (الفَيْحـاءِ)

ومن قوله:

عَبَقتْ فـی الكأسِ أنْفـاسِها نَفْحَةٌ تهـدی إلـی النَّـدْمانِ روحـاً

ميزات شعره الوصفی

اذا تتبّعنا الشاعر فی وصفه لنری أنّ ليس مهم له أن ينتزع صوره من الطبيعة، المهـم للشاعر أنّه كيف يعبّر عن الطبيعة، بشكل دقيق حيث يجمع بين متانة الاسـلوب وعذوبـة المعنی وسهولة اللفظ. فقصائده تشبه بعضه بعضاً فی قوة التعبيـر وجزالـة المعنـی، ودقّـة التشبيه.

قيل له مرة أنک تكثر من وصف الصور الحسية ولا تصف شيئا من الصور النفسية التـی تختلج فی صدرک؟ فقال: إنّی لا أصور الحسية إلاّ لأنّها رموز تعبر عن رؤی قلبـی وأحـلام نفسی، فهو إذن لا يتفنّن فی فی وصف الصور الحسية إلا ليطـلّ مـن خلالهـا علـی صـور نفسه، و الدليل علی ذلک، أنّه كان يضمن وصفه الحسی كثيراً من الشوق والحنين، كقوله فی وصف الغوطة:

مـرآةُ أحْلامـی ومَرتـع صَـبْوَتی وهَـوی فـؤادی بَـلْ ومِتْعَـةُ نـاظری
فی كلّ مغنی مِنْ فـؤادی شُـعبةٌ وبكلِّ وادٍ هـائمٍ مِـنْ خـاطِری

فی وصف البحر

كما سبق القول كـان *خليـل* يتخـذ الصـور الحسـية وسـيلة رمزيـة للتعبيـر عـن رؤاه وأحلامه، ويمكن القول أنّ هذه هی الميزة الاولی شـعر *خليـل مـردم بـک* ونشـاهد هـذه الميزة فی قصيدته «يا ليتنی» التی ترمز اليه صورة الحسية من معان عقليـة، فقولـه فـی ذلک، يتكلم علی نفسه:

ياليتنی لمـا شـربت الكأس صـرفا لـم أثـن
أو ليتنی لمـا انتشيت من المدامة لـم أغـن

أو أننی لما ارتویت ترکت شیئا للتمنی

بل لیتنی لما سمعت بل لیتنی لما شمعت

أو لیتنی لما انتقل فی الروض من غصن لغصن

نلاحظ فی هذه الأبیات تلک المیزة بشکل دقیق وملموس، وله فی قصیدة ثانیة عنوانها «قالت لی السمراء» ففیها یصف الشاعر شروق الشمس فوق البحر من وراء السحاب فی یوم مطیر، هبت فیة الریاح الهوج وطغت أمواجه و قصف رعده وومض برقه فیصور الوان الافق بعد الصحو وأشباح السحب وأشلاها المتناثر فی السماء ویردد "ما قالت له السمراء ما بین السطور".

إذن أثرت الطبیعة فی خیاله فأفاض علیها صوراً نفسیة صبها فی الألفاظ الجمیلة وصاغها کما یصوغ الخراف الطین، فجاءت مفعمة سحرالجمال.

کان *خلیل* شاعر لطیف الإحساس وأن احساسه المرهف لایریه فی الطبیعة إلا الألوان الجمیلة والإحسان العذبة، کما أشرنا أن *خلیل* هو یحب الطبیعة الجمیلة ویبتعد عن وصف الطبیعة المخیفة، حیث اذا یصف البحر علی شدته وقسوته، فمرد ذلک إلی لیونة البحر وحرکاته الجمیلة، إذن *خلیل* یعبر عن الإحساس الجمیل باللفظ الجمیل ولا یبتعد عن الصور والألفاظ القبیحة والتافهة، ففی قصیدة عنوانها "الجمال"، یأتی الشاعر بوصف الجمال بأنّها مرآة ینعکس علیها نور وجه الله حیث یقول:

ومـرآةٌ علیْهـا نـو　　رُ وَجـهِ اللهِ یَنْعَـکِسُ
فمـا أدری أظِـلُّ اللهِ　　أمْ مِـنْ نـورِه قـبسُ
بـدا کـالشمس لکـن سـر　　ه عیـت بـه النـطس

إنّه یلمع الجمال من وراء الصور الحسیة فیبصر ألوانه بعینه ویسمع ألحانه بأذنیه ولکنه لایستطیع أن یحده بما یری ویسمع، لأنّ هذه الأغراض الحسیة زائلة وجوهر الجمال خالد. *خلیل* یلمح الجمال بومض البرق، ویسمعه من الأطیار والأنهار، ویدرکه بنفسه وینفی الجمال النوم من عینه وهو بعینها نعس، وفی الآخر یقول: وهو معنی ماهو به لبس، ومن قوله فی وصف الجمال:

یطل علی من عین الحبیب ولحظه خلس

فینفی النوم عن عینی وهـو بعینها نعس

ويجرى ماءه فى وجهها فيكـــــاد ينبجس

ويذكو عرفه فى ثغرها مـــــا ردد النفس

ويزكو بين عطفيها هنـــک النيه والقمس

وألمحه بومـض البرق إما عسـعس الغـلس

وأسـمعه من الاطـيار والانـهار تـــرتجس

وأدركه بنفسى وهـــــو معنى مـــا لبس

ومن العجيب أن الريف البريطانى الساحر لم يستهوه، ولا حرک شاعريته، رغـم إقامتـه فيه عدة سنين، فليس فى ديوانه قصيدة واحدة تصور لندن وضواحيها الجميلـة، أو تصـور قصورها وحدائقها ومعالم حضارتها، ويرد *الدكتور جميل صليبا* ذلک إلى جو لندن القـاتم، وطغيان ضبابها، وكثرة ضجيجها.

جولة فى اجتماعيات ووطنيات خليل

اهتمام الشاعر *خليل* بوصـف الطبيعـة لـم يكـن أكثـر أهميـة مـن النـواحى القوميـة والإنسانية فى شعره، حيث كان يرى أن على الشاعر مسؤولية إنهاض قومه وإيقـاظ شـعبه من غفلته، إضافة إلى أنه رثى شهداء العروبة وتغنـى بالاسـتقلال ودعـا إلـى الثـورة علـى الاستعمار وتقديس الوحدة العربية الكبرى، وكان جامعـاً فـى شـعره الحماسـى كـل هـذه الأغراض، ولا يقل شعره الاجتماعى أهمية عن شعره الوطنى والقومى فقد دعا إلى إصـلاح الفساد الاجتماعى، وذم من يتمسک بالقشور من رجـال الـدين وانتقـد العـادات الفاسـدة، ونادى بالأخذ بما جاء فى الحضارة الغربية من قيم صالحة، وعطف على الأطفال الجـائعين كما فى قصيدته «اليتيم الجائع»، ولم يكن له شعر هزلى إلاّ قصـيدة واحـدة نظمهـا علـى طريقة *ابن الرومى* فى الإضحاک وتبيين المفارقات والعيوب.

خليل مردم بک يتلقى الوحى من سماء الخيال فيعى سرّ الوجود والعدم ويمثل الصـور العلويه بالألفاظ، فإذا شاهد احمرار الشمس قال هذا نجيع الشهداء، واذا سمع هزيم الرعـد قال هذا صراخ البائسين، فإن لم يكن صوغ القوافى سـجية، ولا يهـتم ببحـور الشـعر، لأنّ عنده ميزان الشعر هو الطبع، وسحره هو الالهام، فيقول:

اذا الشّـعر لـمْ ينفـثْ بِـه ربّـه السـحرا لَعَمْرو القَـوافى الغر ما فَقِـه الشعـــرا

فلَمْ یَبْق بَعدَ الـوَحْی مِـنْ نَبَـإ السّـماءِ إلی الأرْضِ غـیرُ الشّعرِ معجزةً کبْری
أری کُلَّ میزانٍ سوی الطّبعِ فی الفَتـی لما یَزیـد الشـعر فـی وَزْنِـه خَسِـرا
فـإنْ لـمْ یَکـنْ صَـوْغُ القـوافی سَـجِیةً فلیس بِمَجْدٍ أنْ نَخـوضَ لهـا البَحْـرا

ومتی أدرک الشاعر هذه المنزلة من السحر غمرت نفسه الطبیعـه والمجتمـع، فتغنـی بالشعور القومی والشعور الانسانی معاً وعمل فی إصلاح حیاه الانسان، لذلک اهـتم الشـاعر خلیل مردم بک بالنواحی القومیة والانسانیة اهتمامه بوصف الطبیعة، وقوله:

إذا لـم ینبّـه شاعـر القـوم قومـه فذاک بأن یشـقی بـه قومـه أحـری
أری الشّـعْرَ أنْفاسـاً یُصَـرِّفُها الفتـی فیُطفی بِها جمراً ویُـذکی بِهـا جَمْـرا
وینفخهـا روحـا بمیـت أمـة فتنسل مـن أجـداث غفلتهـا تتـری

یعتقد *خلیل مردم بک* أن الشـاعر یحـب علیـه أن ینبـه قومـه ویـذکرهم بأمجـادهم ویـتطلعهم علـی نقائصـهم، وفضـل الشـاعر العربـی بـأن یرثـی شـهداء العروبـة، ویتغنـی بالاستقلال ویدعو الی الثورة علی الاستعمار والدعوة إلی الوحدة.

إذن *خلیل* هو بنفسه بکی علی الشهداء:

یا دین قلبی مِـنْ یـومٍ وَری کَبـدی وطـالَ هَمّـی لِـذِکْراه وتِسْـهادی
فی میلسون مـن الأشـجان سلسـلة نیطَـت بِأطْرافِهـا أرْجـاء أرْوادِ
هلْ مِنْ سَبیلٍ الی الإنْصافِ فی زَمَنٍ جَلَّـتْ رَزایـاهُ عَـنْ حصـرٍ وتِعْـدادِ

وقوله فی شهداء العرب:

مـاذا علیـهِ اذا عَصـاهُ لسـانُه الدمعُ أفْصَح حـین عَـیَّ بَیانُـه
هذی الدموعُ قصیدةٌ جاءَتْ بِهـا للبـاذِلینَ دمـاءُهُم أجْفانُـه
الیومُ ذَکَّرْنا (الحُسـینَ) بکرْبـلا تبکـی علَیـه مجنـدلاً نسـوانِه

وفی الثورة السوریة یقول:

مصـیبةُ میلسـون وإنْ أمْضَـتْ أخـفُّ وَقیعـةٌ مِمّـا تَلاهـا
فمـا مِـنْ بقعـةٍ بِدِمَشْـقَ إلّـا تمثّـل میلسـونَ ومـا دَهاهـا
فسـلْ عمّـا تصـبّبَ مـنْ دِمـاءٍ تخبّـرکَ الحقیقـةَ (غوطتاهـا)
ولـم أر جنـه أمسـی بنوهـا وقـود النـار فـائرة سواهـا

ومن وله فی الوحدة:

فـيم التقـاطعُ والأرحـامُ واشـجةٌ والـدارُ جـامعةٌ والملتقـى أمَـمُ
الله فی قِطـعِ أرحـامٍ وَفصـمِ عـری عهدی بها وهی ثقی لیس تنفصـمُ
قالوا وفی الدین بـونٌ دونَ وحـدَتِنا إلی متی باسم هذا الـدین نقتسـم

فی الابیات التی مرّت بنا یرد *خلیل مردم* علـی الـذین یزعمـون أن اخـتلاف الأدیـان یمتنع من تحقیق الوحدة العربیة.

إذن هو ینتقد الذین شغلتهم السیاسة المحلیة عن المطالبة بالوحدة العربیـة الکبـری، ویری أنّ انضمام الشام إلی دول صـغیرة مخـالف لطبـائع الاشـیاء، وأنّـه ینبغـی للقـائلین بالوحدة العربیة أن یعملوا اولاً علی توحید أقالیمهم الصـغیرة فـإن الوحـدة لا تتجـزأ، وإذا تجزأت قصرت عن بلوغ غایتها، وإنّه لما یحزن القلب أن تری کـل حاضـرة مـن الحواضـر العربیة داراً لمملکة مستقلة، فما علینا لو اتخذنا جمیعاً فی دولة عربیة واحدة تضـم اجـزاء الوطن العربی کله، إذن نلاحظ أن الشاعر فی وطنیاته کان یمشـی مـع اُمتـه، یعبّـر عـن منازعهم أحسن تعبیر، کان یتألّم معهم، وتؤثّر فیه الأحداث التاریخیة، فمـرّة یـتکلّم عـن الفتح العربی ویصفه، ومرة عن الوحدة العربیة والدعوة إلیها، وتارة یخاطب اللجنة الوطنیـة العلیا.

قلنا أن شعره خالٍ من الهجاء إلاّ فی مواطن القدح علی المستعمرین والإنحاء باللائمـة علی المتصاغرین أمامهم، إذن أکثر وطنیاته ترجع إلی أیام الدعوة إلی الوحدة والثورة ضد المستعمرین.

واجتماعیاته متصلة بشعره الانسانی، کانت الحوادث العرب العالمیـة الاولـی لهـا تـأثیر شدید فی الشاعر والدلیل علی ذلک هو أشعاره وقصائده التـی وصـفها فـی الجـوع والفقـر والمـرض وشـکوی الـدهر، والظـالم المظلـوم، وشـکوی المحـزون، وصـوّر اغاسـة البـائس والمحزون والیتیم الجائع والولد الأعمی. من قوله فی الظالم المظلوم:

مازال یأکل من لحمی ویشـرب مـن دمعی ویـرتع فـی جلـدی بمخلبـه
حتـی إذا الـدّهرُ جـازاه بفِـعْلَته لمْ یبْق لی مدمـعاً أبکـی علیـه بـه

نتیجة البحث

کان *خلیل* نموذجاً رائعاً من رجال البیان لصدر هذا العصرفی أدبه، یلحق بکبار الادبـاء من الصوة المختارة، رفع اسم بلاده عالیاً، وقضی حقهاکاملاً، وناضل فی سبیلها کل حیاته، و غدا امثولة تحتذی وسیرة تقرأ، فقد کـان مـن الأوائـل الـذین استسـاغوا الأدب الضـخم والعبارة الفخمة والشعر المتین. عکف علی تراثنا الخالد، وأفـاد منـه. فخـدم الأدب العربـی خدمة لا تنسی، وکان صلة الواصل بین القدیم والحـدیث، جمـع أطایـب القـول وأحاسـن الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

آل جندی، أدهم. ۱۹۵۴، **أعلام الأدب والفن**، دمشق: مطبعة مجلة صوت:.

الجندی، أحمد. ۱۹۶۵، **شعراء سورية**، بيروت: دار الكتاب الجديد.

عياش، عبدالقادر. ۱۹۸۵، **معجم المؤلفين السوريين فی القرن العشرين**، دمشق: دار الفكر.

فرفور، محمد عبداللطيف. ۱۹۸۷، **أعلام دمشق فی القرن الرابع عشر الهجری**، دمشق: دار حسان- دار الملاح.

الكاتب حسان، بدر الدين. ۱۹۷۳، **الموسوعة الموجزة**، دمشق: مطابع الأديب.

كحالة، عمر رضا. ۱۹۹۳، **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

مردم بک، خليل. ۱۹۸۰، **موسوعة الأعلام**، لا مكان: لا نا.

المقالات

خليلی، فاطمة. ۱۳۸۷ش، «**تطور القصة القصيرة فی سوريا منذ الثلاثينات حتی أواسط الأربعينات**»، فصليةدراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية فی جيرفت، السنة ۱، العدد ۲، صص ۵۳-۷۴.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی